

الامر فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائليها فنقلب دعواه مقنناً عليه ويسقط من قلوب الناس اجمعين اذ لم يروا له أثراً يفيدهم سوى ان يجبر عن نفسه باوصاف لاحقيقة لها . وكذلك اذا ارشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها ويظن ان الناس يسترشدون بارشاده فهو لا محالة مطابق النقلة مركب الجهل اذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس اضعاف ما تؤثر الاقوال فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب فتترد في مفهومه فلا يقودها الى العمل الا بعد تكرار وتذكر اما الفعل فهو امر مشهود ينطبع في النفس اشد انطباع فتندفع اليه خصرصا ان كانت فيه لذة ممجبة . وان غاب على غيره وصفاً هو موجود فيه فقد جهل ان ذكره لعيب الغير ينه الاذهان للنقص القائم بنفسه فان المتكبر مثلاً اذا ذم الكبر في غيره فقد ذم نفسه من حيث هو لا يشعر فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها وهو ظاهر

واما اعترافه بنقصه وعجزه فلانه لم يصدر منه ذلك (اي الدعوى بما ليس فيه وترغب الناس فيما لا يرغب لنفسه او فيما ليس بمتصف به بل هو منحرف عنه وذكره لمثالب الغير وهي فيه) إلا لاجل ان يبين للسامعين كماله وفضله ويظهر لهم وصولهم لما يريدون اليه وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم ان الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع وكانه بذلك ينادي على نفسه بأنه لم يبلغ من ذلك شيئاً لانه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفته قدره شاهدة بعلو مقامه سواء ادعى ذلك عن نفسه او لم يدع وسواء نقص غيره او كل ولم يكن هناك

داع لمدحه نفسه او ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس
جاذبة لها اليه بذاتها فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الاوصاف
الفاضلة اورام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذلك ممترق بانه خال
من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة فاضطر الى النداء بالكذب ليقتنع
السامعين بانه كذلك

واما خبث مقصده ودناءة همته فلا أن من هذه صفته لا يريد ان
يكون ذا فضيلة قط ولا يتغنى الوصول الى كماله ولكنه يطالب عيشاً حينما
اتق فاذا جلس الى بعض البسطاء او غيرهم طالب التلبس على عقولهم
ليقرر في نفوسهم انه متمصف بالصفة التي يذكرها عن نفسه او يرشد اليها وانه
خال من العيب الذي يسب به غيره ليقروه فيكتسب منهم مساعدة على
بعض اغراضه الخسيسة او يستفيد منهم خطأ ما يسد به باباً من ابواب
همته وثمره فهو في ذلك بمنزلة المشعبدين او المختلسين او السارقين
ونحو ذلك من كل ذي حياة خسيسة لجلب الاموال ولا يختلف عن
هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال انه غش الناس بحكاية الكذب وهو
المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده العمل يحسب من اردأ الاوصاف واقبحها
لانه يشعر بوجود اوصاف تشهد البداة بقبحها ومن الاسف ان هذا
الوصف يوجد في كثير من اهالي بلادنا بل في الغالب منهم بل لا يوجد
القائل الفاعل الا قليلاً جداً (واننا نخجل من تسجيل مثل ذلك في

الجرائد ولكن اي فائدة في اخفاء عيب فينا عرفه الغير منا فحق علينا ان نذكر به لعله تنفع الذكرى)

انا ان طرقنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لا نعلم قائلنا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطاع الاسرار وكان مع ذلك مشهورا في زمن الاشتغال بانفطنة والذكاء وتوقد الفكرة وقوة الحافظة ونحو ذلك. وآخر يقول انه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل والافحام عند المخاصمة وتفهم الطالب عند الاستفادة حدا لا يصل العالمون الى غباره وان له من طرق الاقناع والافهام ما لا يتيسر لغيره معرفتها وانه يحكي بكلامه الاذهان الميتة ويحشر اليها صور المعلومات ويودع فيها اسرار الكائنات ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيتهم يتحدث عن ذاته بكل الذي قائلناه ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي اسلكه لا تنشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا ان التأليف والتصنيف مفقودة وان وجد منها شيء كان ناقصا ما من جهة المعنى وما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ما قصد منه فيكون كمدونه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن ادراك ما ضاعوا وعمرهم فيه ودلائلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم او الصناعة التي تعلموها فتارة يحتاجون الى الاجانب واخرى الى بعض الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذكرت في المنافع العامة والمصالح الكلية اخذ
 يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة الى جلب النافع
 ورفع الضار والوسائل المؤدية الى تقويم حال الامم وارتفاع شأنها من
 رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شا كل ذلك ثم اذا
 فوض اليه امر من تلك المصالح رأته ابعد الناس عن الخير وأقربهم
 الى الشر واستنكف من المساواة واستهجن معنى العدالة وان كان يدير
 عن نفسه بانفطها وسار مع اغراضه وشهواته وجعلها قانونا يتبع وبه كل
 ذلك حقا وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولا يتعمر له لسان في
 النصيح ودعوى معرفة الحق ولو ان احدا عارضه بحق في أي جزئية
 عقب ترغيبه في قبول النصيح والمساواة لرأته يتذمر ويتضجر ويود ان
 يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ويهدي اليه نصحا في بعض اعماله
 ومنهم من يقول ان كل مهيبة ألت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها
 الا التبايض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية وعدم
 الاكثرات بمنافع العامة؛ ونحو ذلك من الأقوال الصحيحة المسلمة ولو أنك
 لاقيت كل يوم الف شخص لرأته يقر بذلك ويعترف به مدعياً أنه يميل
 كل نليل الى الاتحاد والائتلاف وانما تأتي الفترة من غيره ثم لو أتى اليه
 مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأته يعد هذه المطالبة امراً كبيراً وان
 كانت بنائة من اللطف والانسانية والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو
 دعي الى اعانة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض أخوانه أو الداخلين
 تحت أمرته رأته يتملل ويعتذر أو يتمنع ويستكبر ويقول «ليس هذا من
 خصاصي» ولو طلب الى تأسيس أمر خيري يفيد الزراعة أو الصناعة أو

يساعد على التربية الحقة وجدته يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه ويقول: ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعمامة دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري: كأن جنابه يظن ان المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب ان تكون له من الغير لا في مقابلة منفعة ولا جزاء لدفع مضرة بل لا بد ان ينفعه الناس وهو لا ينفعهم !! وما أجهل امثال هؤلاء السفهاء واضل رأيهم (ومن العجب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف ولكن اذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلباً للوصول الى غايته وكأنه يعد ذلك من قبيل الانصاف الذي يدعيه او اضرب عن النصح والرشاد الى وقت آخر

ومنهم ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم وفاسدي الادارة وسيئى التدبير ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير كان محل الانتقاد ان يكون الفعل صادراً عن سواهم أما اذا كان صادراً عنهم فقد اكتسب الحسن من فوائدهم المقدمة

فأمثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم تيجاً ولا حسناً ولا صحيحاً ولا فاسداً وانما هي الفاظ وروها نطقاً ولا يفهمونها حق الفهم وألقوا استعمالها في مواقع مخصوصة فهم يستعملونها كما سمعوها بدون ان يعلموا لها حقيقة ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة بل لا يرون حسناً الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية فاذا مضى وقتها ذهلت افهامهم عنها ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا

ولا يرون قبيحا الا ما يصل الى ادراكهم من المؤلمات الوهمية كذلك
 فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم فان رأوها لا حقة بغيرهم لم يعدوها
 مؤلمة ولم ينظروا اليها نظر الآسف المستنكر فيختلف عندهم حسن الشيء
 وقبحه بالاضافة الى انفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرسى وليس عندهم
 صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ولا حقيقة النافع او حقيقة الضار
 وانما هي اهوؤهم يبرون عنها بالانفاظ المطنطنة كالمصلحة العامة والمنفعة
 العمومية والحقوق الوطنية وما شا كل ذلك من المحفوظات الخالية عن
 المعاني يلوكونها بالستهم ومع ذلك فهم لا يسمون من شر ما يقولون فجهلهم
 لا محالة يعود عليهم بماقبة بثست الماقبة

ولكننا لا نحب ذلك ونود ان يكون الفعل أكثر من القول وان
 يكون كل شخص من ابناء بلادنا صغيرا كان أو كبيرا مجدا في نيل الفضيلة
 الثابتة التي يلهج بتحسينها واجراء مقتضاها حتى تكون بذاتها شاهداً
 عدلا على أهلية صاحبها لما يقول وتنتشر الاعمال الصالحة المنطبقة على
 الشرائع اذمة فتسير المصالح على صراط مستقيم وينال كل شخص حظه
 الحقيقي من ثمرات انعام الآتية على وجه منتظم فيعود النفع على العامة
 والخاصة أما الفخفة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لا تعيد ولا تبدي
 والله الموفق